

مُدن عَرَبِيَّة : ١ القَاهِرَة

دزموند ستيوارت

للقاهرة ، وهي اكبر المدن الصحراوية ، لون الصحارى . وقد بناها ايمان صحراوي ، ولا تزال طريق الصحراء افضل الطرق اليها : فهناك طريق سيارات من البحر المتوسط يمتد مسافة مائة وثلاثين ميلا في برية متموجة مغبرة اللون الى ان ينحدر خلف الاهرام الى واحة منخفضة ، تطل عليه قصبة رمادية وبنية . حتى الطائرات لا تتجنب اصطدام الحياة والموت هذا : فهي تبدأ في الهبوط على ممرات المطار فوق كثبان من الرمل .

بنيت القاهرة من الصحراء التي ترتبط بها . فقد تكونت المثلثات العجيبة التي شاهدها خوفو وخلفاؤه من ملايين من الصخور الرملية التي اخذت من مقالع جبل المقطم ثم حملها النهر ، في فيضاناته ، الى الغرب عبر الوادي ، فوق الموقع الحالي للمدينة . واستعملت هذه الصخور فيما بعد لبناء المساجد وقصور الحكام في العهود الاسلامية .

وقد عاد جانب كبير من المدينة الى صحراء الماضي . فاخفت القاعة الذهبية التي كان يراقب الخليفة المعزّ منها حفلات البلاط من وراء ستار مزر كش بالذهب ، واختفت معها الاربعة آلاف غرفة التي تألف القصر منها ، وعظام العبيد الاغريق والسودانيين الذين كانوا يأثمرون باوامره . ولم يبق شيء من قساعة الزمرد ولا من الديوان العظيم . وعلى التلال التي بنيت الاهرام من حجارتها والتي منها تحيى الشمس ابا الهول الغربي عند الفجر ، ما زالت تقوم بقايا جوامع وكأنها احلام لم تكتمل في قصة قوطية .

والصحراء تغزو المدينة ، سواء منها جادات الاحياء الحديثة او ازقة الاحياء القديمة الملتوية ، وفي شهر ايار (مايو) تحمل الخماسين التي تهب من ليبيا ترابا دقيقا يتسلل من احكم النوافذ ويترك على النبات والمباني غبارا رماديا . ان الاهداب المصرية الطويلة سلاح ضد هذا الغبار ، وليست للزينة .

وتزداد حدة مباحج القاهرة ، شأنها في ذلك شأن مباحج الصحراء ، بفضل هذا الاطار الصحراوي المغبر . وتبيع الاكشاك عصير المانجو او قصب السكر لترطيب العطش القاسي . وتلون الازهار الزوايا الكالحة . وحينما تغيب الشمس في مساء يوم حار من وراء فندق الهلتون تعبق الارصفة بأريج غريب ، هو رائحة زنبق ورائحة اقحوان معاً .

والصحارى ، كالبهار ، ليست مجرد فراغات . انها قوى تربط وتجمع . فثما ربط البحر مدن اليونان في عالم البحر المتوسط القديم ، جمعت الصحارى المناطق المتناثية في الشرق الاوسط . فقد جاء الرحالة والسياح الى المكان الذي تقوم القاهرة عليه منذ بدء التاريخ . فمع ان اسم القاهرة عربي ، كان موقعها شهيرا من قبل ان يغادر العرب شبه الجزيرة العربية بمدة طويلة . وكان الفراغة قد بنوا في هذا الموقع الذي يتسع النيل فيه ويصبح الدلتا الشبيهة بالمروحة ، عاصمتهم ممفيس . (ولا يزال هرم سقارة المتدرج ، وهو أقدم صرح حجري في العالم ، يشرف على مدافن ممفيس ، وتمكن رؤيته من مباني القاهرة العالية) . وكانت مدينة الاموات الرئيسية للفراغة على مرتفعات الجيزة ، التي يصلها المرء الآن في غضون اربعين دقيقة في باص رقم ٨ من ميدان التحرير . وكان في « منبع الشمس » ، (اي هليوبوليس حاليا) ، معهد علمي قديم درس فيه كل من هيرودوتس وافلاطون على ايدي كهنة مصريين . وفي هليوبوليس الحاضرة (واسمها الآن عين شمس ، وهي ترتبط بالمدينة بواسطة المترو) احدى جامعات القاهرة الاربعة .

لم يأت ذوو النفوذ من الرحالة ببضائع ، بل بافكار دينية . فالقاهرة (وهي ، مثل مدن اخرى كثيرة ، احدث حلقة في سلسلة متعاقبة من اماكن السكن البشري) تمتلىء بآدلة حسية ظاهرة على الاديان .

مع ان العبرانيين (الذين يسميهم القرآن بني اسرائيل) كانوا يقومون بصنع الآجر في الدلتا الشرقية ، فان القرون التي سبقت ميلاد المسيح شهدت مستعمرات يهودية قائمة على ضفتي النيل . وكان اكبرها قرب المصب الغربي للنهر ، في الاسكندرية . هناك بسط فيلو مذهبه التوحيدي بتعابير الفلسفة الهلينية . وقد تبنت الكنيسة نظريته في « اللوغوس » ، اي الكلمة ، لتفسير التجسد . غير ان العائلة المقدسة ، لما هربت من فلسطين من غضب هيرودس ، انما جاءت الى المدينة الرومانية في موقع القاهرة ، « بابل المصرية » . ولا يزال الكهنة الاقباط يدلون السياح على سرداب رطب في كنيسة ابي سرجانم فيه اللوغوس ومريم ويوسف . والى الغرب من الكنيسة كنيس يهودي فيه توراثة ثمينة .

ولكن لا الكنائس المسيحية ولا اليهودية هي التي تسيطر على سماء القاهرة ؛ فهي ليست مدينة مسيحية ولا يهودية ، بل هي مدينة مسلمة ، ينظر المسلمون اليها بتقديس لا يقل كثيرا عن تقديسهم لمكة التي تتجه مساجد القاهرة نحوها او للمدينة حيث دفن الرسول . ومع ان الاقن يحمل منذ ١٩٥٢ المزيد من ناطحات السحاب والانصبه السامقة ، يظل الطابع الرئيسي للمنظر الداكن من فوق السطوح هو المآذن ، رمز الايمان الذي يعلن خمس مرات كل يوم من شرفات في اعلاها .

وللقاهرة ، كمدينة صحراوية في افريقيا ، نباتات تمتاز بها : ازهار تحتاج لتنمو في الشمال

الى بيوت زجاجية مدفأة ، واشجار تصبغ الارض القاحلة بالوان زاهية ، وشجر الكافور باوراقه الصغيرة ذات الخفيف ، وشجر الطلح الذي يناسبه الجفاف ، والجميز المصري ، والبلح الذي جاء في القرآن ان المسيح ولد تحته ، وشجر البنيان الفخم الذي تنمو من اغصانه الجرداء اشجار جديدة قائمة اللون . وبما ان المطر لا ينزل الا في شهور قليلة كل سنة ، فان الاغبرار يغشوا على الدوام خضرة القاهرة .

الصحراء والنهر

ومع هذا فان ما يجعل من هذه المدينة الصحراوية مدينة فريدة هو ، اكثر من بناياتها ومن نباتاتها ، النهر الذي يهبها الحياة . ان مدن الواحات الاخرى يحصرها العطش ويحدها . اما صحراء القاهرة فان اطول انهار العالم القديم يخترقها ويقسمها الى قسمين ، حاملا معه هبات من الاطلسي عبر ادغال افريقيا وجبالها .

منذ ان توقف استيراد مياه فيشي اصبح على كل قاهري وكل زائر للقاهرة ان يشرب من ماء النيل ، النهر الذي كثرت حوله الكليشيات . فقد قيل عنه : « من شرب منه مرة شرب منه ثانية » ، وقيل عنه اصدق من ذلك : « من شرب منه كثيرا لم يعد يتحمل ان يفارقه » . وماؤه ، مهما كان موحلا ، مبارك عند الفلاح المصري . والناس يتعلقون بهذا النهر ، ويجدون هجرانه مؤلما .

وليس هذا القول من قبيل المبالغة . فاذا انت تهمت مسافة عشرة اميال الى الشرق او الى الغرب من هذا الشريط المائي ، فانك تموت عطشا - ان لم يسعفك بدوي او فريق يبحث عن بتول . فالمطر يبلغ حدا ادنى ، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة مجهولة اخرى من بقاع كثيرة في صحراء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الاحمر عبر الصحراء الكبرى الى المحيط الاطلسي .

الا ان اصدق كليشيه عن النيل هي التي تتجسد في لونه . فهو يتلون بسمرة تميل الى الاخضرار ، مثل ثوب سهرة حريري لعجوز ارستقراطية : نيلي اللون - الا حينما تجعله شمس الصباح المبكر كذيل الطاووس ، او حينما يشع منه بريق المعادن في منتصف الليل . كان النيل ، كالْبوسفور ، في مطلع القرن التاسع عشر ، سجنا مرعبا تحت سطح الارض ، يرمى فيه العصاة ، عرسانا مقيدون لنهر غامض الالهواء الجنسية . لكن النيل فقد هذه الصفة المرعبة ، وهو الآن عامل تلطيف في مدينة كانت لتبدو قاسية لولاه .

وترى رجال القوارب السمر ينتظرون خارج السميراميس من يريد « فلوكة » من المصريين او الاجانب . ويأتي معظم هؤلاء من اسوان ، في اقصى الجنوب . ويطلبون ما يساوي خمسة شلنات لمشوار ساعة . وتسير على ممر متهدم ، وتبتعد فجأة عن الضوضاء

ودخان البترول . ويمتلئ الشراع الرث ولكن المدبّر بمهارة ، ويشق القارب (وشكله ازلي كالنيل) صفحة الماء وهو يمر بقرب مستشفى القصر العيني نحو كوبري الجامعة . وفي ايام الفرس والاعياد تقذف نافورة بنتها وسط النهر شركة كروبس متعهدي بناء الجسور مياها غزيرة ترتفع اعلى من الفنادق .

ويختلف النيل عن النهر العربي الكبير الآخر ، الدجلة ، الذي يعني اسمه باليونانية «النمر» . فدجلة العراق نهر عنيف مفترس ، يفيض في الوقت الغلط — في الربيع ، حيناً لا حاجة للماء بعد — اما النيل فهو انسب مجرى مائي في العالم : مناسب للريّ وللمواصلات على السواء . وهو دائم التدفق في اتجاه الشمال ، فيحمل القوارب الى البحر المتوسط ، وفي الوقت نفسه تجعل الرياح التي تهب عليه من البحر ذاته سفر العودة الى الجنوب سهلاً بدون تمور . واهم من ذلك ، فانه يفيض عندما تكون هناك حاجة لمياهه ، حيناً يأخذ جفاف الصيف في تجفيف الحقول .

يجب اهل القاهرة عامل التلطيف هذا في مدينتهم الصحراوية . فعلى ضفتيه تقوم افضل شقق السكن . ويحتل فندق شبرد الجديد ، الذي نُقل من موقعه القديم قرب الازبكية ، مكانه مع سميراميس وهلتون ، مطلاً على النهر . وحيناً تقسم الجزيرة النيل تصطف الذهبيات العتيقة الساحرة في الفرع الغربي ، الاضيق ، منه . وفي القاهرة مائة وتسعون منها ، وسيئتها الرئيسية تعرضها للبرغش .

في القناطر ، الى الشمال من القاهرة ، يروّض النيل اخيراً . فيحصر سور كبير هناك الماء طيلة اشهر العطش الاربعة ، بواسطة ابراج على طراز ما تصفه روايات السير وولتر سكوت . وترمز القناطر الى المركز الرئيسي للقاهرة في التاريخ . فان موقعها على رأس الدلتا يعطيها اشرفاً سهلاً على مصر العليا والسفلى معا . فان الذي يسيطر على المياه في بلد صحراوي يسيطر على البلد نفسه . والقاهرة مدينة بأهميتها لكونها تقوم على المكان الذي يتفرع النيل فيه الى عدة انهر ، وهي شرايين تمتد الى الشمال لتغذي فدادين الدلتا الخصبة . فليست القاهرة مدينة عظيمة فحسب : بل هي ايضا عاصمة عظيمة ، تحكم الامّة بلا منازع لها ، لكن سكانها متنوعون ومتعدّدو الالوان .

مدينة متعددة الالوان

وقد كانت القاهرة متعددة الالوان منذ تأسيسها . فحتى في تلك القرون التي كانت دار الاسلام بمعزل فيها عن دار الحرب (اي العالم المسيحي) تدفقت على مصر جماعات كثيرة من بينها الصليبيون في ١١٦٣ . فالمدينة المتغيرة لم تكن تتغير في هذا الامر . فجاءها هبيد بيض من القوقاز (اصبحوا حكامها ، باسم المالك) ، وعبيد سود من السودان ،

وتجار من جاوه والصين ، وعلماء واولياء من تونس والمغرب ، واكثر من هؤلاء كلهم ، فلاحون مصريون من الدلتا والوادي ، ممن اجتمع في عروقهم دم الفراعنة والليبيين والنوبيين والاغارقة والاحباش والصوماليين . وفي نزل المدينة وكرلياتها تكون هذا المزيج القاهري الغريب منذ وقت طويل .

وعندما فتح نابليون مصر امام اوربا اشتدت تناقضات المدينة ومفارقاتها ، واضيف الغرب الحديث الى الشرق الخالد - مع ان هذا الغرب لم يكن الغرب الاحسن او الاصدق دائما . فقد اضطر الفقر في جنوبي اوربا افواجا من المهاجرين الى النزوح الى مصر في القرن التاسع عشر . وبلغت الجماعات الاوربية هذه في مصر مئات الالوف . واضيف اليهم ايضا جمع من المشرقين الذين اطلق المصريون عليهم اسم الشوام . وقد حقق هؤلاء الاغراب نجاحا كبيرا في مصر ، الا جسديا : فكأن الطبيعة عاقبتهم بيد بينا كافأتهم بالآخرى . فشجبت بشراتهم واصبحت اخف جاذبية من البشرات السمراء للسكان الذين عاشوا بينهم . الا ان مدخراتهم في المصارف كانت في حالة جيدة .

وجاء التمصير بعد ثورة ١٩٥٢ ، فتقلصت موجة الاغراب بسبب التشريعات وقوانين العزل والتأميم وتبدل الجو السياسي . كما ان الهجرة خفت بسبب ازدهار البلاد التي جاء النازحون اصلا منها . وهكذا ازدادت السمرة في القاهرة من بعد الثورة ، لكن قلت اناعتها ايضا . وكانت جماهير الشعب في اواخر عهد فاروق قد غرقت في فقر ازال كل ثقة وامل ولم يعد يحتمل . ولم يكن حريق القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ احتجاجا على الفقر فقط ، بل كان ايضا احتجاجا على ترف فاضح وسط الفقر والفاقة . فان الاميرات الجميلات كن في تلك الايام العصبية يتجولن في شوارع القاهرة الفخمة للتبضع ، وكان بعض المطاعم يقدم الحزون والاجبان الفاخرة الباذخة الثمن المستوردة خصيصا من باريس . وفي الوقت نفسه كان مصريون كثيرون يعيشون على بضعة مليات في النهار .

بمعالم الاناقة قليلة في القاهرة الجديدة . فالاهتمام ينصب على القضاء على بواغث اليأس ومع هذا فبالرغم من وجود حكومة تهدف الى مجتمع اكثر وحدة وتناسقا ، يظل اهل القاهرة مختلفين متنوعين . فالمدينة نفسها ، باحيائها وصفاتها وعاداتها ، تعكس الاجناس والالوان والعادات المختلفة التي يتألف الشعب منها .

« بلدي » هو النعت الذي يستعمله رسام الكاريكاتور في وصف ابناء المدينة الاصليين وسكان احيائها الشعبية . وهو يصف اسلوبهم التقليدي في الحياة ، او يصف الاماكن التي يقيمون فيها . ويبدو المصريون البلديون مجلبياتهم واصواتهم العالية غير منسجمين مع عاصمة تزداد عصرية باستمرار ، بالنسبة الى الاجنبي الهيباب . اما بالنسبة لمن يأخذ على عاتقه الاجتماع بهم في مقاهيهم فهم ملح المدينة : ديمقراطيون مرحون بسطاء وعلى الفطرة .

والكبار منهم ظرفاء ومتأدبون ايضا . وقد تكون النمط الاساسي لحياتهم في الاحياء القديمة من المدينة ، حيث تقراكم طبقة من الزمان فوق اخرى ، وحيث تقوم مساكن رخيصة فوق اطلال قصر ملكي او فوق مزبلة .

ويستحيل ان نبالغ في وصف نمو سكان اكبر مدن افريقيا هذه . ليس فقط لان القاهريين يتناسلون بكثرة ، بل لان القاهرة ، شأن العواصم الاخرى ، تمتص كلاسفنج مئات الآلاف من النازحين عن القرى . وقد ارتفع مستوى المعيشة فيها اسرع من ارتفاعه في البلاد عموما . ولذلك يحمل كل قطار قادم نحوها من الجنوب او الشمال سكانا جددا . وكان سكانها في العام ١٨٨٢ حوالي ٣٧٥ الفا ، تضاعفوا عشر مرات تقريبا في ١٩٦٤ . وسيربون على الاربعة ملايين عندما يكون قد مرّ عام واحد على صدور هذا المقال .

لم تعد القاهرة القديمة (المنطقة التي يصل اليها صوت مؤذني مساجد القلعة) اكبر تجمع للحياة التقليدية هذه . فقد كانت شبرا قرية بنى محمد علي فيها قصرا ريفيا . وكانت كتب السياحة الى العام ١٨٩٦ لا تزال تقترح السفر اليها لأولئك الذين يريدون ان يقوموا برحلة نصف نهائية لرؤية قنوات الريف المصري وجواميسه . اما الآن فحتى تشاهد الريف عليك ان تذهب في اتجاهات اخرى : غرباً الى الاهرام او الى الجنوب من حلوان . اما شبرا ذاتها فهي حي من القاهرة اكثر ازدهارا من ايست هام قرب لندن او هارلم في نيويورك . وتسود الطريقة البلدية في المعيشة المئات من الشوارع الجديدة . ولكن اذا كانت شبرا لم تعد ريفية ، فانها لا تزال تستحق الزيارة من اجل كنيسة القديسة تيريزا ، وهي من اروع المعابد اطلاقا . وقد جذب المعبد الصغير الذي بناه في الاصل كرملي انكليزي ايرلندي في العشرينات من هذا القرن ، جموعا متزايدة من المسلمين والمسيحيين على السواء . اما الكنيسة الجديدة الضخمة فأن الامهات المصريات يزرنها بلا انقطاع ، يتبركن باسناد اطفالهن او ملابسهن الى الصندوق الزجاجي الذي يستلقي فيه تمثال القديسة . وعلى جدران المدخل لوحات ندور في اكثر من دسنة من اللغات ، واحدها من رئيس وزارة مسلم سابق في مصر . والعباسية حي آخر اخذت المدينة القديمة تنطلق فيه من حدودها وتصل الى السهل الممتد الى هليوبوليس والمطار . وقد اصبح قصر حبيب سكاكيني الذي كان قصرا ريفيا ، وهو صرح قوطي واسع فخم ، يتوسط مساكن شعبية مزدحمة . وحتى في الشوارع الخلفية من هليوبوليس ، اي مصر الجديدة (او القاهرة الجديدة) ، اخذت طرق المعيشة القديمة تتطور ، وراحت تتقبل الترازستور وآلات الغسيل الكهربائية . ويسمع صوت الراديوات عاليا في المقاهي ، ويلبس الناس ثياب النوم في الشوارع ، وتعمل اربعون الف عربية على ابطاء حركة السير ، ويتجادل رجال الشرطة بالبستهم السوداء (او البيضاء في الصيف) مع المشاة بصراخ يجعل المرء يتوقع ثورة ، — الى ان ينتهي ذلك كله الى ابتسامات وامارات

احترام ، ويصبح الغضب سلا . في هذه الاماكن يتوالد الاطفال كالفراخ ، ولكنهم فراخ بدون آلة تفقيس : فهم بالرغم من صخبهم وعبثهم يخافون آباءهم ويوقروهم . وكثيرون منهم اشقياء ، وبعضهم جانحون : هؤلاء ، اذا تم القبض عليهم ، اصلاحيات - لكنهم رشيقيون متملصون . الا ان الاحصاءات لا تدل على وجود انحراف لا هدف له هنا ، صنو ذلك الانحراف الذي يظهر في المجتمعات المزدهرة عادة .

تسأهل احياء القاهرة البلدية الزيارة . انها بقايا حية « لالف ليلة وليلة » . فمع ان جانبها كبيرا من هذه القصة الرائعة تدور حوادثه في بغداد ، فان القاهرة هي المجتمع الذي تصفه القصة ، وطريقة الحياة التي تصورها لم تتبدل في نواح كثيرة . لكن معظم ابناء البلد في القاهرة ، عندما يتوافر لهم ان يشتروا ثيابا افرنجية فانهم يفعلون ذلك ويكيفون انفسهم معها حسب طريقة الحياة الافرنجية .

فالطبقة الوسطى هي العنصر الذي يسيطر على القاهرة الحديثة . من صفوفها قام بناة المدينة في شكلها الحاضر وصانعو اذواقها ومحققو ثورتها . وقد انبثقت الطبقة الوسطى مؤخرا عن الجماهير البلدية . فكانت قد انقضت سنوات كثيرة من القرن التاسع عشر قبل ان يسمح للمصريين العاديين بتملك الاراضي ، والبرجوازية انما نشأت عن تحطيم الاحتكار الملكي للارض . اما الآن فالحواجز الطبقية مطاطة والطبقة المتوسطة في نمو . والارقام تدلل على هذا النمو : فبينما يبلغ عدد الذين يملكون شهادة للسواقة في القاهرة سبعين الفا فقط ، يبلغ عدد موظفي الحكومة ومستخدميها (وهم ينتمون ، الى حد ما ، الى الطبقة الوسطى) ستائة الف .

مهما يكن من امر ، فان آمال الطبقة الوسطى ومطامحها هي التي تقرر شكل المدينة الجديدة : فدوقها هو الذي يقرر ما يجب هدمه وما يجب بناؤه وما يجب ابقاؤه . وقد احتفلت الطبقة الوسطى بانتصارها على النظام القديم ببناء كورنيش النيل البالغ طوله خمسة وعشرون ميلا : فهذا المشروع الذي طال البحث فيه عشرات السنين تم تشييده في غضون اسابيع ، وتمكن القاهريون لذا من ان يتمتعوا اليوم ، بمختلف طبقاتهم ، بما هو بالفعل رثة جديدة . والطبقة الوسطى تستهويها الفخامة والعصرية والراحة . لهذا يعطي مبنى التلفزيون ، ذو الطبقات الثلاثين و ذو الفسيفساء الازرق ، صورة للحياة حسب طرق الطبقة الوسطى لاولئك الذين يملكون اجهزة التلفزيون او الذين يلتفون حول الاجهزة الموضوعة في الاماكن العامة . وهناك ثلاث قنوات كانت في العام الفائت (١٩٦٤) تقدم كل اسبوع ١٣٧ ساعة و ١٦ دقيقة من البرامج الترفيهية والتثقيفية .

ومن الطبقة الوسطى برج القاهرة في الجزيرة ، الذي تصفه المنشورات الحكومية بانه

ذروة الفن المعماري الاسلامي الجديد ، والذي يشبه في الواقع سلة مستطيلة سامقة العلو . وفي اعلاه مطعم يدور حول ذاته ويتحرك كقطار بطيء جدا ، يرفع رواده اعينهم عن الصحن ليروا المنظر وقد تبدل تماما : فالاهرام الآن من جهة الشوكة على المائدة ، حيث كانت القلعة على الاقل ، وهم يحتسون الحساء ، قد بدت وكأنها ثابتة .

والقاهرة مدينة تسامح وتساهل عظيمين . ومع انه قد يحصل احيانا اصطدام بين فئة واخرى ، الا انه ليس فيها تمييز عنصري . واذا كانت فيها ازقة تشبه هارلم ، فانها هارلم بدون عقد نفسية . واذا كان السودانيون يتجمعون في مقاهٍ خاصة ، فليس هذا لانهم معزولون بل لانهم هم يفضلون ذلك . وليست ثمة بلدة او قرية كبيرة في وادي النيل ليس لها مقهى خاص بها في القاهرة ، يجتمع فيه ابناؤها الساكنون خارجها في العاصمة — اقول ابناؤها ، لا بناتها : فان مقاهي القاهرة الستة آلاف لا تزال للرجال فقط .

مع مدينة الاحياء مدينة الاموات

تؤوي احدى الضواحي في طرف من اطراف المدينة اغلبية من فيها : الاموات . فتتمتد مدينة ، او ضاحية ، في قوس موازي للقاهرة التي يعيش فيها الاحياء ، ما بين شوارعها المزدحمة وجبل المقطم القاحل . انها المخطط الهندسي من الشوارع التي تراها اذا وقفت في جامع الجيوشي ، فوق القلعة والحصن الذي منه ضرب نابليون المدينة التي وقفت في وجهه . وهي ليست مقبرة ، مع ان القبور تشكل جزءاً منها . بل هي مدينة لها لون الاسود ، منخفضة ، ذات شوارع كسائر الشوارع ، وبيوت مرقمة ، كأن ساعي البريد سيحمل اليها البريد في اولى جولاته . ولكنه ان قرع الباب ولم يفتح له احد ودخل ، وجد ما يشابه بيتا عاديا : غرفتين متجاورتين ، يكلمهما الغبار ، وفي كل منهما جسم مستطيل من الحجر او الجبس . تحت احدهما يرقد ذكور العائلة ، وتحت الاخرى الاناث — معزولات في الموت كما في الحياة . ويستلقي الاموات على بلاطات ، تغطيهم الاكفان ، لكننا بدون توابيت . ومما يستحق الزيارة قبور الممالك ، حكام القاهرة ستة قرون ؛ كذلك القبر الجامع لآل محمد علي ، المنمق على طراز القرن الماضي .

هذه الضاحية ردّ على اولئك الذين ينكرون الاستمرار ما بين مواطني ممفيس قبل اربعة آلاف سنة وسكان القاهرة المعاصرة . ان الرومان كانوا يحرقون موتاهم ؛ والاغارقة كانوا يدفنونهم خارج المدينة على جانب الطريق ؛ وكان الاسلام في مطلع عهده يؤثر القبور البسيطة التي يمكنك ان تزيل معالمها بيدك . اما القاهرة فليس لعاصمة اسلامية سواها مثل هذا النظام في الدفن الذي تتبعه ولا مثل ما يصحبه من شعائر . ففي كل يوم مهم من ايام السنة (كعيد الفطر والاعیاد الاطول التي تقترن بالحج الى مكة) يخرج الناس في القاهرة الى مدن

الاموات هذه ، يحملون سلال الزاد ، متلفين على زيارة افراد العائلة الذين لن يتاح لهم بعد ان يلبسوا ثياب العيد الجديدة ولا ان يخرجوا الشم النسيم . وهناك امران يختلفان اليوم عما كانا عليه في ايام الفراعنة ، الذين كانوا يقومون بالاجراءات نفسها في مواسمهم : فلا تحنيط للموتي ، والمقابر الآن على الضفة الشرقية من النهر ، حيث تبرز الشمس . فباستثناء عهد اخناتون الهرطوقي كان المصريون القدماء يدفنون موتاهم (بعد تحنيطهم ، ببذخ او ببساطة ، حسب ظروف العائلة) على الضفة الغربية ، مملكة اوزيريس .

كان لصوص المقابر مشكلة عويصة للفراعنة . وكانت الاهرام ، وهي المقابر العميقة ، محاولات لاتقاء اللصوص . ولا يزال لصوص المقابر يزعجون القاهريين اليوم كما كانوا يزعجون القاهريين في الماضي . ويحرس الحفراء مدينة الاموات هذه ، ولهم ولعائلاتهم دكاكين صغيرة تباع الشاي والدفاتر ، وبعض البيوت يقطنها سكان احياء . ولكن بالرغم من وجود الحفراء ، ومن وجود الغيلان التي تقول الحرافات انها تسكن في ظلمة المقابر ، يثقب معظم العائلات اكفان الاموات حتى لا يعود فيها ما يغري بالسرقة .

وما يميز القاهرة عن اية مدينة اخرى في افريقيا (او في آسيا من هذه الناحية) انها كانت منذ مطلع القرن الماضي عاصمة دولة حديثة الى حد ما . واذ اقول هذا فانا لا اقصد التملق : ففي « الدولة الحديثة » مزيج من السيئات الى جانب الحسنات . غير ان ما في القاهرة ، من ثلاثين محكمة فيها ستمائة وخمسون قاضيا ومستشارا ، وثلاثة سجون فيها ثمانية آلاف سجين ، وخمسة وستون مستشفى فيها ١٣٠٣٢ سريرا ، وما يزيد على الالف ومائة شرطي للسير ، لا يعكس كونها عاصمة ليس الا ، بل كونها عاصمة دولة على النمط الحديث . كما انها فريدة في نوعها كمثال على مجتمع شرقي يحتك بالغرب احتكاكا مستمرا ومثمرا ، لا تنافسها في ذلك اسطنبول (وهي ، لكونها في اوربا ، مدينة غربية منذ تأسيسها) : فمع ان احتكاكا مماثلا حصل في قسطنطينية القرن التاسع عشر ، كانت النتيجة انهما : ونقل اتاتورك عاصمته الى مدينة صغيرة في الاناضول . لكن لا يفكر احد بالتخلي عن القاهرة - الا في شهر آب (اوغسطس) عندما تصبح الاسكندرية « العاصمة الثانية » .

ان فن العمار الاسلامي الذي تتسم به القاهرة يجعلها مدينة فريدة ، - لا مجرد مدينة مهمة .

ربما كانت في المدن الاخرى ، منفردة ، عمار اسلامية اكثر اتقاناً من عمار القاهرة (مع ان هذه مسألة فيها نظر) : فكل من شاهد الالوان البراقية في برصه يأخذ منها العجب ؛ وهواة الشكل المعماري المجردين يدعشون لجمال قصر الاخضر للصيد او قصور

سامرا من القرن التاسع ؛ ولتاج محل المواجه للماء من المعجيين قدر ما له من مصورين . ولكن كلا من هذه الامكنة عبارة عن مبنى واحد او ، كما في حال برصه ، عن مبانٍ من عصر واحد . اما القاهرة فهي الوحيدة التي تكشف عن تطور مستمر ، قرنا بعد آخر ، من السذاجة الى البساطة الى التعقيد ، ومن التفتح الى الذبول ؛ فيجد الزائر بهذا حضارة كاملة بانتظاره ، تكشف عن نفسها في الحجر والقرميد والخشب ، في اكثر من ثلاثة عشر قرنا . وقد كان من الممكن ان تنافس بغداد القاهرة ، لو لم يدمرها المغول بعد سنوات قليلة من اكمال بناء المستنصرية المتناسق جدا . لذا فانتا ان رمنا ان نتذوق الفن الاسلامي « الذي لم تفسده التفاصيل الآلية كما في الحمراء ، ولا التكلف في الاتقان كما في دهلي ، كان علينا ان ندرس مساجد القاهرة ومقابرها » ، كما قال ستانلي لين بول ، — كان علينا ان نعرّج طويلا على مسجد عمرو ، وعلى مسجد ابن طولون الذي تمكن مقارنته بالبارثيون ، وعلى باب زويلة او باب المتولي ، وعلى مسجد الحاكم ، ومسجد السلطان حسن وضريحه ، ومقابر المماليك في الارزاء الشرقية من المدينة .

ليالي القاهرة ابقى في الذاكرة من نهاراتها ، وهي اكثر دراماتيكية من ليالي اوربا بما لا يقاس . وبعض الفضل في ذلك للطقس : فدرجة الحرارة تنزل بشدة في الشتاء (حينما تبلغ حوالي الستين) وفي الصيف (حينما قد تربو احيانا على المائة) بمجرد ان تتوارى الشمس وراء الاهرام . ولان الهواء جاف جدا تبدو النجوم اكثر عددا واسطع نورا مما تبدو عليه في الاجواء الاكثر رطوبة . لكن ما هي مباهج الليل التي تقدمها القاهرة ، عندما يبدأ حرس المدينة المسائيون الالفان (وهم حرس متقدمون في السن ويحملون اسلحة قديمة) بحراسة الشوارع التي تتبدل في الليل من حال لحال ؟

في القاهرة ستة عشر مطعما على النيل ، بعضها في ذهبيات وبعضها في حدائق . وبما ان السماء لا تمطر الا وقتا قصيرا في السنة ، يمكن استعمال مطاعم الهواء الطلق هذه طول السنة ، مع ان الليالي قد تكون باردة في الشتاء .

ليست القاهرة المدينة التي يؤمها المترفون في الاكل الصعاب الارضاء . ومطاعمها ، وخاصة المطاعم في الفنادق العصرية ، تقدم الطعام الغربي المعهود ، وهو يتراوح بين جيد ومتوسط . ويجول منع استيراد الكماليات دون وجود الاجبان الاجنبية . لكن اللحم المصري جيد ، وخاصة لحم الغنم ، وسمك البحرين المتوسط والاحمر ممتاز عموما . ويقال ان نسبة الكبريت العالية في البحر الاحمر هي سبب ضخامة حجم الجبهي في السويس . وتقدم المطاعم البلدية كافة الوان الطبخ الشرقي . واذا كانت باريس مركز الطبخ الاوربي ، فان اسطنبول هي مركز الطبخ لا في تركيا وحدها ، بل في سائر الاقطار التي كانت تشكل

الامبراطورية العثمانية، في اليونان وسوريا ولبنان ومصر. واني اضع الطعام المصري درجة اعلى من اليوناني ودرجة ادنى من اللبناني .

وماذا يفعل المرء بعد ان يأكل - وعادة القاهرة ان تعوّض المرء بالكمية عن اي نقص في النوعية ؟

بالنسبة للقاهريين العاديين ، ثمة عدة اجوبة . اذا كان المرء امرأة ، فانها تبقى في المنزل في العادة ، تخطط او تشاهد التلفزيون او تتحدث مع سواها من النساء. اما اذا كان رجلا ، فانه يذهب الى مقهاه المفضل من بين الستة آلاف مقهى في المدينة. فيه الشاي هو الشراب ، والتسليية هي الطاولة او التلفزيون او المسامرة . فمباهج القاهرة محصورة ، مع ان الشباب ينتمون الى نوادٍ رياضية او يرابطون على الارصفة خارج دور السينما .

وليلة الخميس هي « ليلة السينما » المختارة ، لان الجمعة يوم الراحة في القاهرة. والاختيار متاح بين اثنتين وتسعين دارا للسينما فيها . كتب دستوفسكي ، منذ وقت طويل ، وهو يصف مسرحية تعرض في سجن قيصري في سيبيريا : « ان المسلمين جميعا يحبون الفرجة » . وهي ملاحظة صحيحة . فما من مدينة فيها من هواة السينما المتحمسين قدر ما في العواصم العربية ، والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة ذات الانتاج السينائي الضخم : وقد بدأت ستوديوهاتها (وهي تقوم عند قناة قرب الاهرام) بالانتاج منذ العشرينات ، وزاد انتاجها عنه في بريطانيا ، في بعض السنين .

وقد يأتي خلاص السينما القاهرية ، وربما ايضا ظفرها بالاستحسان العالمي لقيمتها النوعية ، بواسطة النهضة المسرحية - التي ربما كانت الظاهرة الثقافية الرئيسية للقاهرة في الستينات . فمع ان المسرح وجد في مصر منذ اواخر القرن الماضي لم يكن بالقاهرة في ١٩٥٢ غير مسرحين جديدين . اما الآن ففيها ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية واربعة عشر مسرحا للعرض ؛ والعدد في ازدياد . وتتراوح المسرحيات بين هزليات محلية وترجمات لبيكيت و يونسكو . وهناك اكااديمية للفن المسرحي يتخرج منها الممثلون الجدد ، وقد حصلوا كلهم على وعود بالعمل من وزير الثقافة النشيط الدكتور عبد القادر حاتم . وتتجلى محاولة الدكتور حاتم الواعية لجعل القاهرة مركزا للاشعاع الثقافي على نطاق البلاد باسرها في حقل الموسيقى ، وخاصة في الاغاني . فقد كان العرب على الدوام اسبادا للكلمة - وضحايا لها ؛ وكان الشعر فن البادية الاول . ووصلت اغاني احمد شوقي واحمد رامى الى جماهير المستمعين بواسطة صوت امرأة واحدة ، هي ام كلثوم .

يتضمن تشجيع الدكتور حاتم للفنون الشعبية شيئا هو اقرب الى التنظيم منه الى الرقابة . فوزارة الارشاد تمثل ، حسب المصطلحات الفرويدية ، « الأنا الاعلى » الذي يشرف على « الهو » ويتحكم فيه . و« الهو » هو لا وعي الشعب ، ذلك اللاوعي الشاسع

الذي لا يمكن رده .

ان رقصة هز البطن الشرقية التي عرفت بها نوادي القاهرة الليلية (وفيها خمسة وعشرون منها) هي تطور لرقص الغوازي . واللباس الذي ترتديه الراقصات ليس ما اعتدن ارتدائه تراثيا وتقليديا ، بل هو تشويه لما خيل الى مصممي الازياء الاوربيين انه شرقي ، وربما كان يرجع في تاريخه الى ظهور راقصة الباليه في « عايدته » . ويسمح رداء الرقص هذا بعرض البطن العاري ما بين قطعتي نحاس على الصدر وغلالة شفافة . وكان المعجبون ، في عهد فاروق ، يلقون نقودا ذهبية صغيرة بين قدمي الراقصة ، وكانت هذه القطع الرقيقة جدا كورق المعدن تخاط على الغلالة كحواشٍ ذهبية .

كان البطن العاري اولى ضحايا « الأنا الاعلى » . فقد نص قرار في عهد الثورة على وجوب تغطية المعدة بشبكة او نسيج حريري رقيق . وقد قام بعض النظريين بمحاولة (فشلت تماما) لابتداع اسلوب فني « نقي » من هذه الرقصة المثيرة . ولا تزال رؤية راقصات البطن ممكنة ، لا في نادي الهلتون الليلي ولكن في الاعراس المحلية حيث تهتز البطون العارية وحيث لا تزال الحركات على ما كانت عليه دائما . ولا يزال بالامكان استئجار الراقصين الذكور الذين يرتدون اثوابا نسائية ولهم شوارب مثلما لهم جدائل شعر طويلة وحواجب مزججة .

وكما اعطى الغوازي والحولات مكانهم للباليه الشعبي ، كذلك طور قراقوز الى مسرح للعرائس تحت رعاية وزارة الثقافة . وقد استفاد من الانارة المدبرة وجلال المسرح الصغير . في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ كتب صلاح جاهين ، وهو افضل (واسمن) رسام كاريكاتوري بالقاهرة ، « حمار شهاب الدين » ؛ وهي قصة اسطورية تدور احداثها في بغداد وقد اعاد قصها بطريقة حديثة . كانت الانارة بديعة ، وحُركت الدمى بشكل جيد . ولكن بالرغم من قيمة جاهين ، لا كرسام كاريكاتوري فقط بل ايضا كشاعر عامي ، منعت الجهات التي رعت الرواية اية خلاعة او هضامة او عنف . فقتل جو الوقار الحيوية التي هي رأس مال الفنان المتجول . فان هذا الفنان ، الذي لا يستفيد من اية مساعدة حكومية ، يتذكر ، او يعرف بالسليقة ، شعار درنتي كبير فناني العرائس في القرن الماضي : ان ما تفعله العرائس هو اهم بكثير مما تقوله .

مركز تعليمي رئيسي

كانت القاهرة ، طوال الالف سنة الاخيرة ، المركز التعليمي الرئيسي في افريقيا . ومع ان هذا التفوق لم يكن يعني كثيرا في بعض الاوقات ، اذ كانت مراكز التعليم في افريقيا قليلة ، فانه اخذ يعني الكثير في المائة سنة الاخيرة .

اتسع الازهر الذي اسسه جواهر الصقلي اتساعا كبيرا في القرون التي تلت تأسيسه . وكما بنيت كليات اكسفورد في الاصل حول الكنائس والمحاريب (ثم اضيفت اليها فيما بعد منازل لاقامة الطلاب) كان الجامع محور الازهر دائما . ولكن بينما نمت اكسفورد (وقد بنيت بعد الازهر) بسرعة بعد القرن السادس عشر ، بدا الازهر في ركود مدة تسعة قرون ، وتغلب التقليد على الحيوية . كان الكثير مما في التقليد جيدا ، ولكن برنامج التدريس كان محدودا ومدرسيا : طرق تجويد القرآن المختلفة ، والحديث النبوي ، وقواعد اللغة ، والفقه الاسلامي .

وكان الطلاب يقسمون الى جماعات حسب جنسياتهم ، لكل جماعة حارثتها ورواقها ، وهو المسافة المحددة لها بين الاعمدة . وكانت هذه هي الجماعات الكبرى حتى القرن التاسع عشر : الصعيديون ، المكيون والمدنيون ، السودانيون من دارفور ، الشوام ، الجاويون ، الافغانيون ، المغاربة ، الصوماليون ، الاتراك ، الاكراد ، الهنود ، البغداديون ، النوبيون ، وطلبة واحة الفيوم . وقد لا نجد مؤسسة في العالم حوت او يمكنها ان تحوي هيئة طلابية جامعة مثل هذه . وكان اثر الازهر ، حتى عند ركوده ، كبيرا : فقد كان القادة الدينيون في المجتمعات الاسلامية في كل مكان ينظرون اليه كمصدر للاسلام القويم .

مر تجديد الازهر في مرحلتين : قام بالاولى الشيخ محمد عبده في العقد الاخير من القرن الماضي : فوضع لعلماء الازهر نخصصات منظمة ، ونتيجة لجهوده استحدث نظام الكليات والدوائر . وقامت الثانية في عهد الثورة الحالية ، اذ ادركت حكومة الرئيس عبد الناصر ان خريجي الازهر يتوزعون في كل زاوية من افريقيا وآسيا مجهزين لتعليم الدين والقواعد العربية ليس الا . فشعر الرئيس ومستشاروه انه يجب تمكين خريجي الازهر من قيادة مجتمعاتهم ، لا بواسطة تعليم الدين فحسب ، وانما بتعليم الفنون والانظمة العملية التي تحتاجها المجتمعات النامية . فقد اتضح ان على الازهر ، لحير الاسلام كله ، ان يصبح مؤسسة تقدمية ، لا مؤسسة رجعية . نتيجة لذلك جرى ما « يوازي حركة « الكاهن العامل » في الكنيسة . فطلاب الازهر اليوم يتعلمون الهندسة والعلوم ؛ وقبلت الطالبات فيه — وهو امر لم يكن يتصوره احد قبل جيل واحد فقط . وفي ١٩٦٤ اعلنت خطوة جريئة اخرى : وهي مشروع لتأسيس ازهر جديد في بقعة مساحتها خمسمائة فدان في مدينة النصر ، وهي ضاحية الى الشمال من العباسية تنمو بسرعة . وفي القبة سيعطى مائة وخمسون فدانا اخرى لاقامة كلية اسلامية للاناث ترتبط بالازهر .

يعود بعض الفضل في هذا التطور في الازهر ، الذي يضم اربعين الف طالب ابتدائي وثانوي وجامعي ، الى تحدي نظام التعليم العلماني الصرف الموازي له . فبينما استمر قسم من طلاب القاهرة بارتداء القفاطين والاعمدة واتباع منهج مدرسي لم يتغير تقريبا منذ القرون

الوسطى ، درس قسم آخر منهم ، من لاسبى الثياب الغربية ، العلوم النووية والاقتصاد السياسي . ولم يكن قد تم اي لقاء بين هذين المجريين .
تستمد المعاهد العليا طلابها من خريجي المدارس الابتدائية والثانوية ، التي اصبح التعليم فيها الآن الزامياً ومجانياً . ونسبة طلاب المدارس الذين يلتحقون بالجامعات اعلى هنا مما هي في بريطانيا المعاصرة ، الا ان هذا لا يعني ان مستوى الجامعات مرتفع مثله في بريطانيا : فالامر ليس كذلك . غير ان احصاءات ١٩٦٣ - ١٩٦٤ تكشف عن الكثير : فقد كان في مدارس القاهرة ٦٠٨ آلاف طالب ، ٢٦٢ الفا منهم اناث . وكان في جامعي القاهرة وعين شمس ٧٢٩١٣ طالبا ، ١٦ الفا منهم اناث . فتشير هذه الارقام الى توسع كمي ظاهر ، مع انها تدل على ان الفتيات لا زلن اقل نسبيا من الذكور في معاهد القاهرة . والنساء اللواتي يلعبن دورا متزايدا في الحياة المصرية (ومنهن من وصلت الوزارة ، كالدكتورة حكمت ابو زيد) كلهن خريجات هذه الجامعات . واحدى مهام الوزارة المذكورة الآن تنظيم سبعةائة مركز لتحديد النسل في طول الجمهورية وعرضها .

مدينة فرعونية ؟

هذا مقطع سلمي قصير . فالقاهرة ليست مدينة فرعونية . لكنك بالطبع تجد في متحف القاهرة اروع مجموعة من الآثار الفرعونية في العالم ، وتستطيع لقاء قرشين مصريين ان تزور اكثر من مائة غرفة تحتوي على مخلفات مدينة عمرها عمر الانسان المتحضر ، وستجد حول محتويات مدفن توت عنخ آمون وامام مومياء رعمسيس الثاني وسيتي الاول سيلا من الزائرين لا ينقطع من كافة انحاء المعمورة . والقاهريون فخورون بمتحفهم ، وهم يعلمون انه سبب رئيسي في مجيء اربعمائة الف سائح الى مدينتهم كل سنة .

ومع ان القاهرة ليست مدينة فرعونية بل اسلامية ، فانها مركز ممتاز للدراسات الفرعونية . فحتى السائح العابر يجد في قربها من الجيزة وسقارة جاذبا رئيسيا يجذبه اليها . وفي الاهرام يقام عرض ليلي للصوت والضوء يستعيد التاريخ لالف سنة قبل البطالسة . ويستقبل ابو الهول ، المسوح عنه غباره ، شمس الصباح على جبينه الملكي وهو يحدق بالمدينة . ويمكنك ان تشاهد لفيفا من الاهرامات تمتد الى اقصى النظر باتجاه الجنوب ان وقفت على المقطم في الضواحي الحديثة . واذا جئت محطة القاهرة من الاسكندرية او بور سعيد وجدت خارجها تمثالا جبارا لرعمسيس الثاني ، اكتشف قرب سقارة ، ويقف الآن وحيدا منتصباً ، تقذف النوافير الماء عند قدميه .

ولكن الاثر الرئيسي للفراغة في القاهرة هو تقليد شعاراتهم واشكالهم في بعض المطاعم وعلى بعض الاقمشة .

الا اني مخطيء ! فهناك عنصر فرعوني ايجابي : النسوة الشابات ، اللواتي يكحلن عيونهن لتبدو اكبر مما هي (وهي بطبيعتها كبيرة) واللواتي يسرحن شعرهن الاسود بفن غريب يجعله يبدو كالترسيمة الازلية لتفريقيتي الجالسة بجوار زوجها الامير رحوتيب .

من الجوانب السياسية في القاهرة — عاصمة مصر ، وقلب العروبة ، ومركز التكتل الافريقي الاسوي — الجانب السياسي . فهو ، على الاقل ، يقرر جوانب اخرى كثيرة . فصناعة السياحة (يسير المدخول منها جنبا الى جنب مع مدخول قناة السويس) تزدهر بتحسّن العلاقات مع العالم الخارجي . ومن الجهة الاخرى ، قد تترك ازمة سياسية ما الفنادق خالية من الزبائن . ويذهب محصول القطن (وهو لا يزال المصدر الاول في البلاد للحصول على العملة الاجنبية) الى الغرب او الى الشرق ، حسب مقتضيات الظروف السياسية . القاهرة عاصمة دولة كانت مركزية الى حد بعيد عبر التاريخ . وللتخفيف من ذلك منح قرار جمهوري المحافظين في الاقاليم صلاحيات واسعة ؛ وكان تصنيع حلوان وتطوير اسوان محاولتين لايجاد نقاط ثقل اخرى في مصر غير القاهرة . ومع هذا فليست في العالم كله عاصمة فيها من الجاذبية والاستقطاب ما في القاهرة . وكلمة « مصر » نفسها تعني القاهرة مثلما تعني مصر . والقاهري لا يزال حتى الآن يعتبر مرسى مطروح منفى له (الا في الصيف) . وقد كانت القاهرة ، منذ ١٩٤٧ ، مركز جامعة الدول العربية — مما يعطيها بعدا جديدا . ويبدو ان التعبير المصري الشائع بان القاهرة هي قلب العروبة ، صحيح : فهذه المدينة على النيل تستقطب عواطف الرجال والنساء في مراكش والكويت كما تستقطبها في العراق واليمن .

يضاف الى ذلك بعد آخر ، هو وجود افريقيين في القاهرة ، جعلوا منها قاعدة لنضالهم ، او عادوا اليها زائرين كرؤساء دول مستقلة . ان في الزمالك حيا كاملا يغلب عليه اللون الاسود ، ويقطنه افريقيون وطيون يعملون في السياسة ؛ بعض هؤلاء يشك بالدولة المضيضة ، وبعض آخر ينكر جميل مساعداتها ؛ ولكنهم جميعا لا يجدون غنى عنها ، ويعتبرون القاهرة المدينة الرئيسية في قارة في غليان وثوران .

ان القاهرة اكثر من سوق للسلع الغربية النادرة ، واكثر من متحف . انها ساحة تتعارك فيها بعض القضاة الجهورية في عصرنا ، عرا كما مبالغ فيه احيانا ، لكنه حار غيور دائما . واذا كان في ذلك بعض الخطر ، فان فيه ايضا تلهف الاعصاب ، الذي يشكل الفرق لدى زائر القاهرة بين الرحلة السياحية وبين الاختبار والتجربة .